فجوة الاتصال والمعلوماتية بين أوروبا والعرب: الطباعة والمطبعة في البلاد العربية أنموذجا

*عصام سليمان الموسى**

ملخّص

يكشف استعراض مسيرة الطباعة في الوطن العربي أن المطبعة قد تأخر دخولها إلى الولايات العربية الخاضعة للدولة العثمانية مدة قاربت الأربعة قرون.

لقد ظهرت المطبعة في منتصف القرن الخامس عشر (عام 1439) في ألمانيا مؤذنة بقدوم الثورة الثانية في الاتصال والمعلوماتية (Second Communication Revolution) في الوقت ذاته الذي كان فيه نجم الدولة العثمانية يصعد، وكان أن احتل (سليم الفاتح) البلدان العربية عام 1516م، وضمها باسم رابطة الدين، إلى ما أصبح يعرف لاحقا بالإمبراطورية العثمانية. وفي الوقت الذي نجد فيه انتشار المطابع في أوروبا يتزايد مع نهاية القرن الخامس عشر حتى بلغ مجموعها 2500، موزعة على مختلف المدن الأوروبية، محققا استخدامها نهضة علمية ضخمة في تلك الأصقاع، نجد أن استخدامها في الإمبراطورية العثمانية قد منع بسبب فتوى دينية حرّم فيها شيخ الإسلام استخدام المطبعة. وبقي الأمر كذلك حتى عام 1728. وقد استثنيت الأقليات الدينية في الدولة العثمانية من هذه الفتوى، فاستخدم اليهود المطبعة منذ عام 1494م، والمسيحيون العرب منذ عام 1610. ومنذئذ، عملت المطابع المسيحية تحديدا على نشر كتب الدين المسيحي بالعربية إلى جانب كتب اللغة العربية والتراث العربي بأعداد محدودة، مما ساعد في حفظ جذوة الثقافة العربية وهاجة.

واستمر الوضع هكذا حتى عام 1727 حين صدرت فتوى أخرى من شيخ الإسلام أجازت استخدام المطبعة لطباعة الكتب غير الدينية، فظهر أول كتاب عربي مطبوع في الاستانة عام 1728 باللغتين العربية والتركية. غير أن إدخال المطبعة قاد إلى ثورة في الأستانة عام 1730، كان من نتائجها عزل السلطان أحمد الثالث، وقتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا، وعزل شيخ الإسلام عبد الله وحرق المطبعة. وبعد إعادة بناء المطبعة بسنوات، توالى صدور الكتب باللغة العربية، لكن بأعداد محدودة جدا، فلم يزد مجموع ما طبع في مائة عام تقريبا عن 98 كتابا.

مع انتشار الطباعة والصحافة منذ منتصف القرن التاسع عشر، بعد بدء ظهورها في مصر ولبنان أولا، وقبل أن تنتشر لاحقا، وبتفاوت امتد حتى القرن العشرين، في بقية البلدان العربية، أخذ الوعي يمتد في النفوس العربية.

ويخلص البحث إلى أن تأخر دخول الطباعة للبلدان العربية قد نتجت عنه فجوة معرفية في الاتصال والمعلوماتية (المعل– اتصالية) بين العرب والغرب، تقدر زمنيا بأربعة قرون، وذلك بسبب عدم انتشار المعرفة التي جاءت بها المطبعة مقارنة بأوروبا.

الكلمات الدالة : الثورة الثانية في الاتصال، الاتصال والمعلوماتية (المعلو–اتصال)، الدولة العثمانية، المطبعة، فجوة ثقافية، مطابع المسيحيين العرب.

المقدمة

خضعت البلاد العربية لحكم العثمانيين مدة أربعمائة عام (1516–1918)؛ واتصفت هذه المرحلة من تاريخ العرب "بالجمود والركود وانتفى التجدد" (سليمان الموسى: 15)، حتى كان القرن التاسع عشر، فبدأت تهب رياح النهضة العربية الحديثة.

ويرى المفكرون العرب أن من العوامل التي أدت إلى قيام النهضة العربية في القرن التاسع عشر كان دخول المطابع

* قسم الصحافة، كلية الإعلام، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.
تاريخ استلام البحث 2013/2/20 وتاريخ قبوله 2013/8/25.

© 2014 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

التي أسهمت في نشر المؤلفات والكتب، والصحافة التي أسهمت في إيقاظ الأذهان، من خلال ما طرحته من أفكار تناولت الدعوات الفكرية والسياسية السائدة في ذلك العصر: "التجزئة والوحدة الوطنية والإقليمية، والرابطة العثمانية والجامعة الإسلامية والقومية العربية، فساهمت في نشوء رأي عام عربي" (محافظة: 23-24).

إن تتبع تاريخ الطباعة في الدولة العثمانية، وتأخر دخولها للبلاد العربية مدة أربعة قرون، يساعد في الكشف عن أحد الأسباب المهمة في الفجوة المعلو-اتصالية [1] التي تفصل بين العرب وبين الغرب، ومن ثم الحضارة المعاصرة.

مشكلة الدراسة

في ضوء النظرية التاريخية للمعلو-اتصالية، فإن تطوير وسائل اتصال جديدة واستخدامها في مجتمع ما يؤدي إلى ظهور تحولات اجتماعية وثقافية واقتصادية، تقود إلى تفوق هذا المجتمع على غيره ورياديته وازدياد منعته. وعكس ذلك يحدث إذا ما أقدمت السلطة على حجب ومنع استخدام وسائل الاتصال، أو فرضت عليها رقابة مشددة. وعليه، يعمل البحث على تتبع فصل مهم من فصول الثقافة العربية، حين أقدمت الدولة العثمانية، التي شكل العرب جزءا رئيسا من مكونها السياسي، على منع الطباعة في الإمبراطورية العثمانية كفعل كانت له آثار خطيرة على تلك الدولة نفسها، سواء حين أدى إدخالها عام 1828م إلى قيام ثورة لاحقا في الآستانة نتج عنها مقتل الصدر الأعظم وخلع السلطان العثماني، أو بالآثار السلبية التي انعكست على الإمبراطورية العثمانية، لعدم مواكبتها العلم والمعرفة الحديثة التي تطورت في أوروبا، فكان من نتائج ذلك فجوة معلو-اتصالية عانى العرب منها كثيرا في نهضتهم الحديثة بعد تحررهم من السيطرة العثمانية إثر الحرب العالمية الأولى.

هدف البحث وأهميته

يهدف هذا البحث أساسا إلى دراسة مرحلة مفصلية في تاريخ المعلو-اتصالية العربية نجمت عن قرار السلطة العثمانية منع دخول وسيلة اتصال مهمة، ألا وهي المطبعة، إلى الدولة العثمانية، والبلاد العربية التي كانت مكونا رئيسا من تلك الإمبراطورية، مما نجم عنه فجوة معرفية عن الغرب الأوروبي تقدر، زمنيا، بأربعمائة سنة. ولهذا، يعمل هذا البحث على توظيف نظرية المعلو-اتصال التاريخية التي تعتبر أن اختراع وسيلة اتصال كالمطبعة التي مهدت لقيام الثورة الثانية في الاتصال والمعلوماتية، وفي فترة موازية لصعود نجم الدولة العثمانية، كان له أثر عظيم على تقدم الحضارة الغربية الأوروبية بسبب انتشار المعرفة التي جاءت بها المطبعة، مقابل جمود الأوضاع في الدولة العثمانية التي منعت استخدامها إثر الفتوى الصادرة عن شيخ الإسلام.

الإطـار النظري

تؤدي وسائل المعلو-اتصالية دورا حاسما في التنظيم والإدارة والدمقرطة. ويعتبر (هارولد انيس) أن وسائل الاتصال "تحتل مكانةً حاسمة في تنظيم الحكومات وإدارتها، وفي الإمبراطوريات التي نشأت في الحضارة الغربية". ويضيف إلى ذلك أن مفهوم قيام دولة إمبراطورية – أي دولة منيعة في غاية القوة- مرتبط بالكفاءة الاتصالية Efficiency of Communication التي "تعكس إلى حد بعيد كفاءة وسيلة اتصالية معينة وإمكاناتها في إيجاد ظروف مؤاتية للفكر المبدع الخلاق"؛ ويضرب مثالا على ذلك استخدام الورق، فهو يعتبر أن استخدام هذه الأداة الاتصالية قد عزز من تشكيل "البيروقراطيات الإدارية"، ذلك أن الورق يعتبر من وسائل الاتصال التي تدعم السيطرة على "المكان"، فهو يتصف "بالخفة" لدى حمله أو نقله؛ ويضيف: أن "الورق بالتحديد مناسب لإدارة مناطق شاسعة، وهو مؤات للتوسع في الأعمال التجارية"، كما أنه يؤدي إلى تحقيق مزيد من "المركزية" الإدارية (Innis: 5-9).

في ضوء أهمية وسائل الاتصال هذه، التي تم تطويرها عبر مراحل مفصلية، دفعت الباحثين للقول بأن التاريخ الإنساني شهد "ثورات" في "المعلو-اتصالية" (Stephens: 9-12) أحدثت تغييرات جسيمة في حياة البشر، ومنحت مبدعي تلك الثورات قوة مضافة مكنتهم من التفوق والبروز، إلى حين ظهور وسيلة اتصالية منافسة.

هناك **أولا ثورة المعلو-اتصالية الأولى** (The First Communication Revolution)، التي تمثلت باختراع الأبجدية

(أو الألفباء The Alphabet– كما يسميها الغربيون) التي أوجدها الكنعانيون حين طوروا الحروف التي نستعملها حاليا في البلاد العربية والغربية ، وكان ذلك حوالي عام 1500 ق.م . (Mousa, 2002). ويشير (مارشال مكلوهان) إلى حجم الأثر الذي خلفه اختراع الأبجدية الصوتية، فهو يعدها "تكنولوجيا فريدة من نوعها"، ويضيف: أن استعمالها كان يعني " القوة والسلطة والسيطرة على المواقع العسكرية من بعيد"؛ لكن استخدام الأبجدية مع ورق البردي (وهما أداتان اتصاليتان مهمتان) أدى "إلى إنهاء سيطرة كهنة المعبد وكتّابه واحتكاراتهم للمعرفة والسلطة" (McLuhan: 85-86). ويحدد باحث آخر آثارا اقتصادية لهذه الثورة فيشير إلى أنها جلبت معها "تغييرات أساسية للتنظيم الإنساني ومفاهيم النظام الاجتماعي"، وأدت "إلى إيجاد تقسيمات جديدة ومهمة للعمل"؛ ويضيف أن إدخال "الكتابة، إن لم يكن السبب، فهو الأداة التي حددت التحول النفسي والاجتماعي في جميع المجتمعات التي مارست الكتابة" (Smith: 7). ولقد قاد تطوير العرب للورق في العصر العباسي الأول، كوسيلة للمعلو–اتصال مهمة في ذلك الزمن تعادل الحاسوب في زمننا الحالي، إلى قدوم العصر الذهبي للثقافة العربية في القرن الرابع الهجري، ونتج عنه تعميق عصر الكتابة عند العرب (الموسى، 2011: 250).

لكن تطوير المطبعة في ألمانيا، على يد يوهان جوتنبرج، جاء **بالثورة الثانية للمعلو–اتصالية** (Second Communication Revolution)، فأدخلت الإنسان عصر **الاتصال الجماهيري** حين تحول من النسخ باليد إلى الطباعة وإنتاج الكتب والمجلات والصحف المطبوعة بآلاف النسخ، وتوفيرها بأسعار في متناول يد الإنسان العادي–عكس ما كان الوضع عليه حين كانت الكتب مصنوعة من الرق، أو الورق، يتم نسخها بأعداد قليلة فيقتصر اقتناؤها على النخبة. ومكنت المطبعة والصناعات المصاحبة (كالأحبار ومصانع الورق) إلى ظهور فرص عمل جديدة، إلا أنها أسهمت بشكل رئيس في انتشار المعرفة على نطاق أوسع من السابق. وقاد هذا إلى تفوق أوروبا الغربية، مركز تلك الثورة، على غيرها من البلدان. بل إن فيلسوفا مرموقا ، هو برتراند رسل، ذهب إلى أن اختراع المطبعة كان من العوامل التي حددت معالم الانتقال من "العصور الوسطى حتى القفزة الكبرى إلى الأمام في القرن السابع عشر"؛ فبظهورها "اتسع نطاق تداول الأفكار الجديدة إلى حد هائل، وهذا هو الذي ساعد في النهاية على هدم السلطات القديمة" (ص ص 19–23).

غير أنه لا بد من الاعتراف أن آثار ثورات المعلو–اتصالية قد تأخذ زمنا طويلا قبل أن تتفاعل وتظهر نتائجها في المجتمع (Stephens: 9)؛ لذا فإن الآثار التي خلفتها المطبعة تصبح تراكمية، لا سببية مباشرة. وهكذا تتوصل باحثة أخرى إلى أن اختراع المطبعة وانتشارها قد أحدث في أوروبا "تغييرات أساسية في النماذج الفكرية السائدة" (Eisenstein: 703).

في المحصلة، فإن النتائج المترتبة على انتشار المعرفة في أوروبا، وما رافقها من ظهور دور النشر، وتوفر الكتب، والصحف، وفتح المدارس، والجامعات، قادت على مدى ثلاثة قرون ونصف (1439–1800) إلى ظهور حركات إصلاحية في أوروبا، أسهمت بتقدم القارة وتفوقها، يمكن إجمال أهمها على النحو التالي (Mody،Stephens, Smith, Eisenstein، تايلور، راسل):

- علمية– فكرية: وفرت المدارس والجامعات، وخطّت النهج العلمي القائم على الشك الديكارتي الذي يثبت التفكير والوجود، منطلقا من مقولة أساسية هي: "أنا أفكر فإذن أنا موجود". وقاد هذا النهج إلى الاختراعات العلمية والمكتشفات الجغرافية.
- دينية: أدت إلى فصل الدين عن الدولة وظهور العلمانية والقانون المدني.
- وتجارية: مكنت أوروبا من السيطرة على طرق التجارة الدولية البحرية منهية بذلك احتكار التجارة العربية البحرية.
- واجتماعية: أسقطت النظام القبلي، ونظام الطبقات، وعززت الفردية والاعتماد على الذات.
- وسياسية: توجت بالثورة الفرنسية التي قادت إلى حكم الشعب من الشعب وظهور البرلمان وتوقير الرأي العام.
- وليبرالية: شرّعت حرية التعبير والنقد.
- وصناعية–إلكترونية: قادت إلى الثورة الصناعية التي جاءت باستخدام الآلة والكهرباء، مما أوصل إلى بزوغ عصر معلو–اتصالي جديد هو عصر الاتصال

الإلكتروني؛ وظهرت فيه وسائل اتصال سريعة وآنية وذكية بدءا بالتلغراف ثم الإذاعة، الخ.

وقد أجمل (هارولد انيس) أهم النتائج المترتبة على اختراع المطبعة بقوله: إن "تأثير المطبعة كان واضحا لا في الفلسفة التي ظهرت في القرن السابع عشر للميلاد فحسب، وإنما أيضا في ظهور البرلمان"، وكان من نتيجة هذا "أن مبدأ القوة تم استبداله بمبدأ القانون" (Innis: 125).

بعد اختراع الكهرباء وظهور المكننة الآلية في أوروبا، بزغ فجر **ثورة المعلو–اتصال الثالثة الإلكترونية** (Third Communication Revolution) ممثلة بظهور التلغراف حوالي العام 1830م، ليتوالى بعد ذلك ظهور اللاسلكي والمذياع والتلفاز والقمر الصناعي والكمبيوتر والإنترنت.

لكن طيلة هذا الوقت، الذي كانت تتوالى فيه تطوير تكنولوجيا الاتصال في أوروبا، محدثة تغييرا جذريا في الحضارة الغربية، حرمت السلطة الدينية دخول المطبعة للبلاد العثمانية، إلا للأقليات على نطاق ضيق ومحدود، حتى عام 1727م، ومر قرن كامل بعد ذلك قبل دخولها رسميا للولايات العربية.

ومما هو جدير بالملاحظة، أن المطبعة هي حلقة واحدة في سلسلة وسائل الاتصال التي تسارع تطويرها (من هاتف إلى إذاعة إلى تلفاز إلى حاسوب إلى فضائيات) بسبب تفجر المعرفة والعلوم، وصولا للثورة الرابعة الرقمية الحالية (Digitalism) أو الرقمنة – التي حققت دمج قنوات الاتصال (Media convergence) بعضها ببعض (الصوت والصورة والألوان والحركة)– وتميزت بدقتها في تخزين المعلومات، وبسرعتها في معالجتها وتحليلها واسترجاعها، ومن ثم إرسالها. وأسهم دمج تقانة الاتصال وربطها بالحاسوب في إيجاد الشبكة العنكبوتية(World Wide Web) التي فتحت الأبواب أمام العولمة– Globalization، كنظام عالمي قائم على الانفتاح المعلو–اتصالي والمشاركة مع أطراف متعددة. وقد أصبح مثل هذا الوضع قابلاً للتحقيق بفضل المكانة التي تحتلها في حياة الإنسان المعاصر المعلومة، التي (تبحر) عبر هذه الأجهزة المتسارعة التطور. فظهرت الفضائيات وتقانة الوسائط المتعددة التي ربطت أنحاء العالم بعضه ببعض بواسطة شبكة الانترنت العنكبوتية. وكان من نتائج ذلك تفوق مجتمعات المعلومات (Information Societies) وسيطرتها "كأنظمة مركزية" على بقية نظم العالم السياسية: أي "دول الهامش... وشبه الهامش" (ماكفيل:42).

قبل انتشار المطبعة استغلت النخب الحاكمة، سواء السياسية أو العسكرية أو لا دينية، احتكار وسائل الاتصال والمعلوماتية المتاحة لزيادة سيطرتها، فقادت تلك السيطرة إلى إيجاد نظام سلطوي استبدادي لا مكان فيه للشعب. وهكذا تصبح نظرية السلطة في الإعلام والاتصال مرتبطة بمفهوم احتكار الرأي الواحد –أي رأي السلطة ومن لف لفها (Siebert: 11-17). واستمر الاحتكار حتى اختراع المطبعة التي أدت إلى انتشار المعرفة، فأيقظت الوعي. وقاد التنوير المعرفي إلى معارك إصلاحية ضارية شهدتها أوروبا بين السلطة المطلقة ممثلة بالملك، من جهة، وبين الداعين لحرية التعبير وحقوق الإنسان، من جهة ثانية؛ وانتهت بظهور الليبرالية الغربية التي تتلخص اتصاليا بمفاهيم: قبول الرأي والرأي المعارض، واعتماد الصحافة كسلطة رابعة ورقابية، وحرية التعبير، وحق الإنسان في الاتصال (Peterson: 96-99).

سؤال الدراسة

نخلص من هذه الأطر النظرية إلى أن تطوير تكنولوجيا الاتصال، ومن ثم توظيفها بالشكل الصحيح، يقود لتغيرات وتحولات اجتماعية خطيرة تؤدي إلى كسر احتكار النخبة للسلطة.

في ضوء هذه الأطروحات النظرية، يصبح واضحا أن تأخر دخول المطبعة إلى الولايات العثمانية، بالمقارنة مع ما حدث في أوروبا، كانت له نتائج وخيمة أسهمت في ضعف وتفكك الدولة العثمانية وسقوطها، كما وانعكس سلبا على العرب، الذين كانوا مكونا رئيسا من مكونات تلك الإمبراطورية.

وعليه، فإن السؤال الرئيس الذي يسعى هذا البحث للإجابة عليه هو: كيف تعاملت السلطة العثمانية، بوصفها دولة دينية، مع قدوم تكنولوجيا اتصال حديثة، هي المطبعة– التي أحدثت "ثورة" معلو–اتصالية في أوروبا؟ وماذا ترتب على دخولها في محيطها العثماني أولا، ثم مع الأقليات، ثم مع الولايات العربية، وحتى سقوط تلك الدولة؟ وأخيراً، ما الآثار التي

ترتبت على تأخر دخول المطبعة للبلاد العثمانية قياسا بآثار استخدامها في أوروبا؟

منع المطبعة في الدولة العثمانية

تأخر دخول المطبعة، التي انتشر استعمالها في أوروبا بعد اختراعها عام 1439، إلى الدولة العثمانية حتى الثلث الأول من القرن الثامن عشر، بسبب موقف القوى الدينية التي عارضت استخدامها. وكان أن أفتى رجال الدين "بأن المطبعة رجس من أعمال الشيطان" (مروة: 139) لما رأوه فيها منافساً خطراً لسلطانهم على العقول والعلم والمعرفة. وظاهريا، يعزى تأخر إدخال المطبعة لسببين: الأول، وهو الرئيس، أن المنع جاء بسبب موقف رجال الدين وخشيتهم من حدوث اضطرابات "في الدولة العثمانية... لأنهم كانوا يعتقدون أن أمن الدولة العام ربما يضطرب"؛ والثاني، بسبب الضغوط التي مارستها فئة الوراقين العاملين بالنسخ والخط الذين "أشاعوا أن طبع الكتب يتناقض مع الدين" (شقيرات: 634)، وذلك في محاولة منهم للحفاظ على مصدر رزقهم.

لكن من منظور معلو–اتصالي، يمكن أن يعزى صدور مثل هذه الفتوى إلى رغبة الجهات المحافظة، الدينية خصوصا، في ممارسة احتكار المعرفة والسيطرة على العقول؛ فالمعرفة بحد ذاتها قوة يمكن أن تتحدى تلك السلطة. وأظهرت الدراسات التي أشرنا إليها أعلاه، في تاريخ الاتصال والمعلوماتية، منذ أقدم العصور، أن الجهات التقليدية والمحافظة كانت تقف سدا يحول دون انتشار المعرفة بين الناس للحفاظ على مصالح تلك الجهات ومكتسباتها. بل عمدت تلك القوى بعد اختراع المطبعة في أوروبا، وخاصة الدينية إلى ممارسة الرقابة على المطبوعات والكتب. إلا أن قوى الإصلاح بقيادة المفكرين والفلاسفة والأدباء، أدت إلى محاربة هذا التوجه بشراسة، مما أوصل أوروبا الغربية في نهاية القرن الثامن عشر إلى نظام ليبرالي علماني يقبل النقد والشك العقلاني، ويشجع الحوار، وتقديم وجهات النظر المتباينة.

المطبعة العربية في أوروبا

قبل صدور الفتوى الدينية التي منعت المسلمين من استخدام المطبعة في الدولة العثمانية، ازدهرت تجارة بيع الكتب المطبوعة في أوروبا في البلاد العثمانية، منذ أن أصدر السلطان مراد الثالث فرمانا عام 1588م سمح للتجار الأوروبيين ببيعها. وكان الأوروبيون قد بدأوا بطباعة الكتب العربية وقتئذ في معظم البلدان الأوروبية، في إيطاليا وفرنسا وهولندا وألمانيا وانجلترا، بهدف المتاجرة بها، بل إن هذه الكتب بيع بعضها في بلاد الشام أيضا. وطبع **القرآن** الكريم في البندقية، لأول مرة، عام 1537، وذلك بعد أن أجازت طباعته محكمة التفتيش الكنسية. وكان أول كتاب عربي طبع في (فانو) جنوب البندقية، هو (كتاب **صلاة السواعي**) لكنيسة الأرثوذكس الملكيين. وقد شجعت الكنيسة الكاثوليكية في روما على نشر الكتب الدينية المسيحية للحؤول دون انتشار البروتستانتية في المشرق.

ومن أهم الكتب العربية التي نشرتها المطابع الأوروبية بالإضافة إلى **القرآن** الكريم، **الإنجيل المقدس** و**الأجرومية** وكتاب **القانون الثاني لابن سينا** و**نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار للجغرافي الإدريسي** . ونشرت مطبعة المعهد الماروني في روما كتاب نصر الله شالان وعنوانه **مبادئ اللغة العربية** عام 1620. ونشرت المطبعة الأمبروزية في ميلانو عام 1632 كتاب **كنز اللغة العربية** للفيروز آبادي مع ترجمة لاتينية في أربعة مجلدات. ونشرت مطبعة في فرنسا كتاب **العهد والشروط التي شرطها محمد رسول الله لأهل الملة النصرانية**، وربما بهدف "التقرب إلى مسيحيي الشرق لحمايتهم... وبعث الطمأنينة لدى تجار مرسيليا الذين انضووا تحت راية ملك فرنسا في بداية القرن السابع عشر، وذلك بإبراز عقلية التسامح الديني لدى المسلمين" (قدورة: 43). ومن بين الكتب العربية التي نشرت في هولندا بالعربية **أمثال لقمان الحكيم**. وفي ألمانيا، نشر **القرآن** الكريم في هامبورج عام 1694 دون ترجمة لاتينية. وفي انجلترا نشر كتاب **حي بن يقظان** لابن طفيل[2] في أكسفورد عام 1671. لكن نشر الكتب العربية قلّ منذ منتصف القرن السابع عشر في أوروبا. وكان أكثر من ثلث الكتب التي نشرت يتعلق بالنحو واللغة العربية. أما الثلث الثاني، فيتعلق بالديانة المسيحية، وكان هدف المطابع الكاثوليكية توزيع كتبها في الشرق لنشر"الكاثوليكية في أوساط المسيحيين العرب ولم يكن

موجها للمسلمين"؛ أما البقية فكانت موزعة بين علوم الطب والفلسفة والفلك والرياضيات والتاريخ والجغرافيا (قدورة: 56 و63).

كانت أغلب المطابع العربية في أوروبا مرتبطة بمعاهد وجامعات. وكانت غالبية المطبوعات العربية ثنائية اللغة (أي تصدر بالعربية وترجمتها باللاتينية)، وقد استفاد منها التجار والمبشرون والطلاب. وقد مكنت هذه المرتكزات المستشرقين في القرن التالي من "اكتشاف واستقصاء المؤلفات الأدبية والعلمية للكتاب المسلمين" (قدورة: 59). ويأتي هذا القول مصداقا لما أورده إدوارد سعيد في كتابه **الاستشراق:** لقد عمل الأوربيون على اكتشاف التراث العربي والإسلامي فساعدهم هذا على إخضاع الشرق لاحقا.

المطبعة: للأقليات أولا

لقد عرف العرب العثمانيون الكتب المطبوعة في نطاق محدود منذ أواخر القرن السادس عشر عن طريق أوروبا، كما سبقت الإشارة. لكن سماح السلاطين العثمانيين للأقليات الموجودة في الدولة العثمانية استخدام المطبعة بصورة استثنائية قبل فرمان عام 1727 أتاح لأفراد تلك الأقليات الاستفادة من المطبعة. وكان العرب المسيحيون قد باشروا باستخدام الطباعة منذ عام 1610، أي بما يقارب القرن والنصف قبل مباشرة مطبعة اسطنبول طباعة الكتب بالعربية بإنتاج قليل سخر لأهداف معينة كما سيتضح لاحقا.

وهكذا، ففي الوقت الذي مُنع فيه المسلمون من استخدام المطبعة، سمح للأقليات الدينية بإدخال المطبعة واستخدامها بعد نصف قرن تقريبا من زمن اختراعها في ألمانيا عام 1439. لقد رخص السلطان بايزيد الثاني لليهود إقامة مطبعة خاصة بهم عام 1494 "على ألا يصدروا كتبا بالحروف العربية والاقتصار على الحروف العبرانية واللاتينية" (قدورة: 106). وأقاموا نتيجة ذلك مطبعتين في سالونيك واسطنبول.

وكان للأرمن مطبعة في مدينة سيفا منذ عام 1567، ولليونانيين في اسطنبول منذ عام 1627.

أما بالنسبة للعرب المسيحيين، فقد سمحت السلطة العثمانية لهم باعتبارهم أقلية[3] طائفية، باستخدام المطبعة منذ عام 1610 م، أي قبل قرنين على الأقل من السماح بدخولها للولايات العربية. والسؤال الذي يطرح هنا هو: أين وجدت هذه المطابع، وماذا طبع فيها من كتب، وهل أسهمت في حفظ جذوة التراث العربي؟

مطابع العرب المسيحيين

بالنسبة للعرب، كانت بدايات الطباعة عند الأقلية المسيحية منذ عام 1610، ولم تكن كلها دينية، إذ ظهرت بعض المطابع الخاصة. ويبرز في هذا المجال دور القادة الروحيين المسيحيين العرب، الذين عملوا على الحصول على مطابع مستقلة خاصة بهم، بهدف الحفاظ على عروبتهم وطقوسهم الشرقية. لقد اكتشف هؤلاء القادة أن كتب الدين المسيحي المطبوعة في روما والغرب "لا تتفق في مضمونها مع النصوص المعتمدة في كنائسهم"، بما عناه ذلك من محاولة روما "كثلكة" العرب ليصبحوا من أتباع البابا (قدورة: 79). ولهذا، وفي سبيل إبقاء كنائسهم شرقية أرثوذكسية عربية مستقلة، سعوا للحصول على المطابع، وعملوا على نشر اللغة العربية الفصيحة بين أتباعهم. ويمكن تفسير موقف رجال الدين المسيحي هؤلاء وفق نظرية المعلو–اتصالية التاريخية بأنهم سعوا للحفاظ على كنائسهم الشرقية وطقوسهم لمواجهة ضغوط الفاتيكان ثم البروتستانت، الأمر الذي ساعد في الحفاظ على استقلالية الكنيسة الشرقية عن الغربية.

كانت أول مطبعة ظهرت في دير قزحيا عام 1610 م على يد سركيس الرزي الذي عمل في مطابع الفاتيكان من قبل، وطبع فيها الكتاب الوحيد الذي صدر عنها، وهو **سفر المزامير** في 290 صفحة، باللغتين: السريانية، يقابلها في عمود مواز، العربية، بالحرف الكرشوني (قدورة: 81) المستخدم عند مورانة لبنان.

وكانت أول مطبعة خاصة، كما يذكر صابات، ظهرت في عام 1841، أنشأها أحد الأفراد (بلفنطي) في حلب، وقامت بطباعة ديوان ابن الفارض ثم كتاب المزامير (ص 36). وابن الفارض شاعر صوفي له مكانته في الأدب العربي، وقد عاش في القرن الثاني عشر، ومن شعره الصوفي قصيدته التي يتغنى فيها بالذات الإلهية:

قلبي يُحدثُنـــي بأنك مُتــلفي
روحي فِداك، عرَفت أم لم تعرفِ
لم أقضِ حق هواكَ إن كنتَ الذي
لم أقض فيه أسى ومثلي مَن يفي
ما لي سوى روحي، وباذلُ نفسه
في حب من يهواه ليس بمسرفِ

لكن المطابع ذات الأثر الأكبر ظهرت منذ مطلع القرن الثامن عشر، ومن أبرز هذه المطابع: مطابع حلب والموارنة في جبل لبنان.

مطبعة حلب عند الأرثوذكس الملكيين: تأسست أول مطبعة بالحرف العربي في مدينة حلب عام 1706م، عند مسيحيي الطائفة الأرثوذكسية الملكية. وتخصصت هذه بطباعة كتب الدين المسيحي، ووفرتها بأعداد وفيرة وبنصوص عربية فصيحة مترجمة عن السريانية واليونانية. وقد عمل بطريرك أنطاكية اثناسيوس الثالث دباس، الذي اشترى المطبعة من بوخارست، على طباعة **الإنجيل** باللغة العربية، ذاكرا في المقدمة التي وضعها أنه شرع بطبعه "بعد أن حررتُه على اللغة اليونانية بوضعه جملة فجملة، وأصلحت إعرابه لفظة فلفظة"؛ ويصف قدورة هذا البطريرك بأنه كان "من رجال الأدب البارزين في الطائفة، إذ قام بتأليف جملة من الكتب والرسائل وبترجمة نصوص دينية من اليونانية إلى العربية" (ص 185)، وهذا يبين مدى اهتمام البطريرك بنشر لغة العروبة بين أتباع الكنيسة الملكية. زد على ذلك أن المطبعة استعانت بالمنح والهبات، فمثلا مول طبعة **الإنجيل** عام 1807 جان مازبا، قائد جيش الانكشارية في بلاد الفلاخ. وتوقفت مطبعة حلب عن العمل عام 1866، وهو الوقت الذي بدأت تظهر فيه المطابع الخاصة في لبنان، مثل مطبعة خليل خوري صاحب جريدة **حديقة الأخبار**.

مطابع الموارنة: بعد دير قزحيا وحلب، دخلت المطبعة إلى جبل لبنان عند مسيحيي منطقة الشوير ابتداء من عام 1733 (صابات، 1966: 18؛ قدورة: 15). وكان الموارنة قد تعرفوا على الطباعة من قبل حين طبعت لهم روما مخطوطاتهم.

كان من نتائج دخول الكتب المطبوعة بالعربية أن حدث تحول سياسي اجتماعي مهم عند الموارنة. لقد رأوا أن الكتب المطبوعة ستساهم في توحيد نصوصهم الدينية بعد أن تعددت في الأديرة المختلفة. وسياسيا، تعززت نزعتهم الاستقلالية بعد تحالفهم مع الأمير الدرزي فخر الدين المعني الثاني، في القرن السابع عشر، الذي قاد حركة استقلال جبل لبنان عن الباب العالي. وهكذا رأى الموارنة في "الكتاب المطبوع وسيلة ناجعة لتكريس هويتهم إزاء الطوائف المسيحية [الأخرى] وبصفة عامة للحفاظ على شخصيتهم واستقلالهم عن المسلمين" (قدورة: 70) وعن روما. وهنا يمكن القول إن الطباعة عند الموارنة عززت استقلاليتهم الدينية والسياسية على حد سواء.

وفي بيروت عملت مطبعة أخرى على طبع كتابين دينيين، هما: **المزامير** عام 1751، وكتاب **السواعي**.

لقد عملت مطابع حلب والشوير وبيروت، والتي كان مؤسسوها من رجال الدين المسيحي، على تعزيز نزعة المسيحيين العرب للحفاظ على شخصية مستقلة. صحيح أن هذه المطابع أسهمت في الجدل الديني الطائفي بين الروم الأرثوذكس والملكيين الكاثوليك، لكنها "كانت متفقة على هدف واحد وهو مقاومة الضلالات الدينية والانحرافات"، ونشر كتب تنطوي على تقديم نصوص "دينية سليمة من الأخطاء" (قدورة: 237). ولا شك بأن هذه المطابع استخدمت في طباعة الكتب المدرسية التابعة لهذه الكنائس، مما أسهم في إيجاد جيل عربي متمكن من لغته.

لقد أسهمت المطابع المسيحية بتعزيز الهوية، وبالحفاظ على شخصية مستقلة، فضلا عن أن نظرة القائمين على هذه المطابع كانت قومية.

السماح بالمطبعة في الدولة العثمانية

مع مطلع القرن الثامن عشر أدرك المتنورون العثمانيون أهمية الطباعة ودورها في نشر المعرفة، حين لاحظوا نهضة أوروبا وتقدمها في جميع المجالات مقابل تراجع الدولة العثمانية وجمودها وضعفها، فكان لا بد من معالجة الأسباب. وصارت ترتفع في الدولة حينئذ دعوات الإصلاح والانفتاح، خاصة بعد هزائم الجيوش التركية أمام جيوش الروس والنمسا.

في خضم هذه الدعوات، تغيرت النظرة للمطابع، وصدر فرمان سلطاني بجواز استخدام المطبعة، وطبع جميع أنواع الكتب، عدا كتب التفسير والحديث والفقه والكلام وافتتحت مكتبة عامة، من بين مشاريع أخرى. واصطدمت عملية التحول هذه بقيام ثورة أحرقت المطبعة الأولى في اسطنبول، وأطاحت بالسلطان الذي أدخلها، وتم اغتيال رئيس الوزراء الصدر الأعظم، وعزل شيخ الإسلام الذي أفتى بجواز المطبعة.

فتوى شيخ الإسلام بجواز المطبعة

أفتى شيخ الإسلام يكيشهر لي عبدا لله أفندي أثناء مشيخته (1718–1730م) بافتتاح أول مطبعة بالحرف العربي في اسطنبول نتيجة ضغوط من الصدر الأعظم إبراهيم باشا الذي كان راغبا مع السلطان أحمد الثالث (1717–1730) في إدخال إصلاحات للبلاد.

كانت البداية حين أوفد الصدر الأعظم السفير يرمى سكز جلبي محمد أفندي إلى باريس عام 1721، فقضى فيها أربعة شهور وكتب كتابا عن مشاهداته مبديا اهتماما واضحا بالتطور التقني والصناعي الذي شهدته تلك البلاد. وعند عودته اقترح على الصدر الأعظم إقامة مطبعة في اسطنبول وفتح مكتبة عامة فيها. وأعد إبراهيم متفرقة آغا (وكان من أصل مجري)، بالتعاون مع سعيد، ابن السفير جلبي محمد أفندي الذي أصبح بدوره صدرا أعظم فيما بعد، والذي كان رافق والده في سفارته لفرنسا، مشروع تأسيس مطبعة في العاصمة. لكن الباب العالي لم يستجب لهذا الطلب أول مرة. وعاود متفرقة الطلب في عام 1726. ولمعرفته بموقف رجال الدين من المطبعة، فإنه لم يكتف بطلب "إصدار فرمان من السلطان"، بل طلب أيضا صدور "فتوى من شيخ الإسلام" تسمح صراحة بطباعة الكتب (شقيرات: 635). وأرفق بطلبه رسالة (وسيلة الطباعة) أورد فيها حججا تبين مزايا الطباعة، ذكر من بينها: أنها تضاعف إلى ما لا نهاية عدد النسخ من الكتاب الواحد، وأنها تراعي الدقة الكاملة للنص، كما أنها تعمل على إحياء المؤلفات الإسلامية التي كادت تنقرض، وتخفيض أسعار الكتب وتثقيف الرعية والقضاء على الجهل، وأن الخط المستخدم في الطباعة يمكن أن يضاهي خط اليد من حيث الجمال والتناسق؛ وأضافت الرسالة أن توافر الكتب سيكون مدعاة لتأسيس مكتبات عامة لفائدة الناس، ومواجهة عملية إغراق الدولة بالكتب المطبوعة بأوروبا التي تطبع هناك وتباع هنا (قدورة: 145؛ شقيرات :648)

أخيرا استجاب شيخ الإسلام عبدا لله للضغوط التي مارسها عليه الصدر الأعظم إبراهيم باشا، وأصدر فتوى شرعية أجازت طباعة الكتب "ما عدا تلك المتعلقة بالشريعة والفقه الإسلامي". بعد ذلك قام الصدر الأعظم، الذي كان متحمسا للمشروع، بإقناع السلطان أحمد الثالث فوافق[4] على "إصدار فرمان (خط همايون) يسمح بإنشاء المطبعة" في تموز عام 1727 (شقيرات: 636)، وصدر ترخيص المطبعة باسم إبراهيم متفرقة وسعيد شلبي قبل أن يستقل متفرقة بها (قدورة: 266). وهكذا عد متفرقة، ذو الأصل المجري، مؤسس أول مطبعة عربية في اسطنبول.

عملت الفتوى الدينية على مواجهة المأزق القائم حينئذ، فقسمت العمل بين الناسخ والطابع. لقد أبقت الفتوى للناسخ أو الخطاط، الذي أبدى مقاومة لمشروع المطبعة، صناعة نسخ الكتب الدينية وتخطيطها. بالمقابل، سمحت الفتوى في الآن ذاته للطابع (في هذه الحالة متفرقة وشريكه) طباعة كتب الآداب والعلوم (قدورة: 146). هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، اشترط قرار السلطان العثماني مراقبة النصوص، فشكل لجنة مراقبة للمطبوعات مكونة من أربعة علماء. وكان من مهامها إصدار رخص لطبع الكتب (قدورة: 269).

ثورة باترونا وإحراق المطبعة

تضمن أول كتاب طبعه إبراهيم متفرقة وشريكه الفرمان السلطاني، ورسالة (وسيلة الطباعة) التي واكبت صدور الفتوى الدينية، وتقريظ علماء الدين لها (شقيرات: 636)، حتى لا يتركا مجالا لمتقول بعدم شرعية ما أقدما عليه. وتم تأسيس مطبعة "دار الطباعة العامرة" في منزل متفرقة. وكان أول كتاب طبع في هذه المطبعة كتاب **الصحاح** للجواهري مع ترجمته للتركية عام 1728. وواصلت المطبعة طباعة الكتب حتى عام 1730، حين قامت ثورة بقيادة ضابط البحرية خليل باترونالي (الذي عرفت الثورة باسمه) وشارك فيها "المتشددون الذين لم ترق لهم التجديدات على الطريقة الأوروبية وكذلك

الخطاطون والعاطلون عن العمل". وكان من نتيجة الثورة عزل السلطان أحمد الثالث، وقتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا، وعزل شيخ الإسلام عبدا لله، وتدمير المطبعة (شقيرات: 637–639).

وهكذا دفع الذين كانوا وراء الفتوى ثمنا باهظا. لكن من يستطيع وقف حركة التاريخ؟؟ بعد عقد من الزمان، أعيد بناء المطبعة، وبقيت تعمل بصورة متقطعة حتى عام 1783.

جراء هذه الظروف التي واجهت إنشاء المطبعة فإنه لم يطبع في مطبعة متفرقة، حتى ارتقاء السلطان سليم الثالث سدة الحكم عام 1787 (أي قبل قيام الثورة الفرنسية بقليل)، إلا عددا يسيرا من الكتب لا يتجاوز السبعة عشر، أي بمعدل كتاب واحد كل ثلاث سنوات عاشتها مطبعته. وطبعت أغلب هذه الكتب باللغات التركية والفارسية والفرنسية، وقلة منها بالعربية، كمعجم **الصحاح وإعراب الكافية لابن الحاجب** (مع ترجمة تركية لهما). أما كتب التاريخ، التي نشرتها المطبعة، فكانت "لتدعيم سلطة الأمراء العثمانيين"، وكانت الترجمات عن العربية والفارسية بهدف "حذق ودراسة اللغة التركية التي استعارت في تلك المدة قرابة نصف ألفاظها من هاتين اللغتين"، كما أن بعض الكتب لم "تتوان عن الحديث على ضرورة الإصلاح وأسباب انحطاط الدولة" (قدورة: 277–278). وتوقفت المطبعة أيام السلطان عبد الحميد الأول بسبب انشغال الدولة بحروب في روسيا وبروسيا وفارس (قدورة:304).

في هذه الأثناء "تطور موقف علماء الشرع الإسلامي في الدولة العثمانية إزاء فن الطباعة"، فسمحوا بطباعة كتب الفقه الإسلامي باستثناء **القرآن** الكريم، فبدأت تظهر كتب الشريعة والفقه منذ عام 1803.

وحتى عام 1828، أي بعد مرور قرن على صدور الفتوى، لم يزد مجموع ما طبع من كتب عن 98 كتابا، أي بمعدل كتاب واحد في السنة، "وهذا من أوضح الأدلة على تخلف الامبراطورية العثمانية وعدم مسايرتها للنهضة الأوروبية" (سليمان الموسى، ص 15).

وفي عام 1831 عملت الدولة العثمانية على تأسيس مطبعة رسمية تابعة لوزارة المعارف باسم (المطبعة العامرة) استمرت بالعمل حتى سقوط الدولة العثمانية (شقيرات:هامش ص 637)، مع نهاية الحرب العالمية الأولى.

المطبعة في البلاد العربية أيام العثمانيين

لم تدخل المطبعة على يد العثمانيين إلى الولايات العربية إلا بعد مرور قرن تقريبا على صدور فتوى شيخ الإسلام بجواز استخدامها. كانت البداية دخول المطابع الرسمية إلى هذه الولايات في مطلع القرن التاسع عشر، أولا للأسباب التي سبق ذكرها، وثانيا نتيجة ضغوط جهات منافسة للسلطة.

والحق أن الولايات العربية دخلتها المطبعة لأول مرة عن طريق الفرنسيين إلى مصر، إذ كانت أول بلد عربي عرف الطباعة. وحدث ذلك حين غزوا مصر وفتحوها بقيادة نابليون عام 1798، حيث أحضروا معهم مطبعة قامت بطباعة منشوراتهم وصحفهم، التي تعتبر أول صحف ظهرت في البلاد العربية أيضا. وقد أسموها "المطبعة الأهلية" (الطناجي: 356). ولكن مصر لم تستفد من هذه المطبعة، لأن الفرنسيين حملوها معهم حين أخرجهم الانجليز منها عام 1801. وعموما، كانت الحملة بمثابة صدمة ثقافية وحضارية هزت المصريين لما رأوه من حال متقدم للفرنسيين.

وأدخل الوالي العثماني داود باشا مطبعة حجرية إلى بغداد وطبع عليها جريدة **جورنال العراق** –التي لم يعثر على نسخ منها– باللغتين التركية والعربية عام 1816، وكانت "توزع على قواد الجيش وكبار الموظفين وأعيان المدينة، كما تعلق نسخ منها على جدران السراي. وكانت تحتوي على وقائع العشائر وأخبار الدولة العثمانية وأوامر الوالي والإصلاحات الواجب إجراؤها" (ويكيبيديا).

وبقيت مصر من دون مطبعة حتى عام 1819، حين أنشأ محمد علي الكبير (والي مصر بين 1805 و1848) مطبعة بولاق المشهورة[5]، التي عرفت أيضا باسم المطبعة الأهلية أو مطبعة الباشا ودار الطباعة الخديوية، والتي تولت طبع المطبوعات الرسمية والكتب المدرسية (صابات، 1979: 37؛ الطناجي: 356). وكان محمد علي ضابطا، من أصل ألباني، انشق على الدولة العثمانية وحكم مصر وسلالته من بعده حتى عام 1952. والأمر الجدير بالذكر أن محمد علي اهتم بالانفتاح على الغرب، فأرسل البعثات الدراسية لفرنسا، واعتمد العلم لبناء دولته وتقويتها.

أما دمشق، فلم تعرف المطبعة إلاّ بعد استيلاء إبراهيم باشا، ابن محمد علي، عليها أثناء محاولة والده احتلال المشرق العربي حوالي عام 1832، وذلك قبل أن توقف طموحاته الدول الأوروبية. لقد أدخل إبراهيم لدمشق مطبعة حجرية تولت طباعة المنشورات والتعليمات العسكرية (صابات، 1979: 36). ومن مزايا المطبعة الحجرية أنها لا تتطلب تجهيزات كثيرة، وتحافظ على جمالية الخط العربي المقبول من القارىء الذي تعود طريقة نسخ الكتب (بنشريفة: 212).

وبعد انسحاب جيوش محمد علي من بلاد الشام تحت الضغوط الأوروبية الخارجية، أدخلت الحكومة العثمانية عام 1864 المطبعة إلى دمشق لطباعة جريدة (سورية)الرسمية. وأسس المؤرخ التركي جودت باشا مطبعة في حلب عام 1867 تولت طباعة صحيفة أسبوعية رسمية هي (فرات)، بالإضافة إلى المطبوعات المختلفة للولاية.

ونتيجة لانتشار التعليم وازدياد نسبة القراء أخذ بعض الأشخاص يعملون على إدخال المطابع. ومن هؤلاء خليل خوري في بيروت الذي كان أول من أدخل مطبعة أهلية إلى لبنان عام 1857 طبع فيها صحيفته المشهورة **حديقة الأخبار** بعد ذلك بعام واحد. وتعتبر هذه الصحيفة البداية "الحقيقية" لظهور أول صحيفة عربية "شعبية" (مروة: 162 و 167).

وأدخلت الطباعة إلى العراق وفلسطين عام 1830. ويذكر صابات أن مطابع العراق الأولى كانت إمّا "فارسية أو مطابع رهبان" (ص 37). وكانت معظم المطابع التي أنشئت، في فلسطين، بعد ذلك التاريخ دينية (صابات: 40). ويذكر رؤوف سعد أبو جابر أن اليهود أدخلوا عام 1830 أولى مطابعهم للقدس، وكان عندهم حتى عام 1870 ست مطابع؛ وأدخل الرهبان الفرنسيسكان مطبعتهم عام 1847، تلتها مطبعة دير الروم الأرثوذكس عام 1851 ثم مطبعة دير الأرمن عام 1866 (2004).

ودخلت المطبعة إلى اليمن عام 1872، وصدرت عنها نشرة (يمن) في أربع صفحات ذلك العام باللغتين العربية والتركية، واهتمت "بنشر القوانين وأهم أخبار العاصمة المركزية، كما اهتمت بالشؤون العسكرية، وكانت توزع بشكل محدود على أفراد الحاميات العثمانية والمسئولين الإداريين" (بن جنيد: 42). وصدرت جريدة **صنعاء** الأسبوعية الرسمية 1879، بالتركية أول الأمر حتى العدد رقم 248 حيث صدرت حينئذ باللغتين العربية والتركية، وكانت عباراتها ركيكة وخدمت أفكارها الدولة العثمانية وصدرت أولا في أربع صفحات ثم صارت تصدر في ثماني صفحات (المصدر السابق: 46–47).

كذلك أدخل العثمانيون المطبعة الميرية إلى الحجاز عام 1882، وبعدها بعام عملوا على إدخال مطبعة أخرى تولت طباعة صحيفة **الحجاز**. وطبعت مطابع الحجاز بلغات ثلاث، العربية والتركية والجاوية الملاوية. وتفسر أسبقية ظهور المطابع في اليمن على الحجاز إلى بعد اليمن عن مركز الدولة العثمانية وصعوبة إيصال التعليمات إلى الرسميين العثمانيين (المصدر السابق: 75).

في شمال إفريقيا، دخلت المطبعة تونس حين أسس راهب فرنسي مطبعة عام 1849 قبل أن تغلقها الحكومة؛ ثم أدخلت مطبعة حجرية إلى تونس عام 1857 على يد المشير محمد باي، غير أن المطبعة الرسمية دخلت عام 1859 م، واقترن إنشاؤها بصدور جريدة **الرائد** التونسية عام 1860 (بنشريفة: 218).

وفي المغرب تم شراء مطبعة حجرية من مصر عام 1281 هجرية، وأقيمت في مكناس أولا، ثم نقلت إلى فاس حيث جامعة القرويين وأصبحت مطبعة رسمية تسمى بالمطبعة المحمدية (بنشريفة: 213).

أما بقية أقطار المشرق العربي، فلم تدخلها الطباعة إلاّ في القرن العشرين.

نتائج الدراسة

في ضوء ما سبق، فقد توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

أولا: تأخر دخول الطباعة من ناحية واقعية إلى البلاد العربية حتى منتصف القرن التاسع عشر. ثانيا: كان عدد هذه المطابع محدودا إذ اقتصر في بداية الأمر على السلطة وولاتها، وكانت الصحف الرسمية تطبع على هذه المطابع.

وثالثا: تأخر ظهور صحف شعبية في البلاد العربية حتى منتصف القرن التاسع عشر.

رابعا: كان موقف رجال الدين الإسلامي حاسما: ففي

البداية عارضوا دخول المطبعة، وحين أذنوا بدخولها في الربع الأول من القرن الثامن عشر، حددت استعمالاتها، وظهرت معها الرقابة على المطبوعات. لقد شعرت القوى التقليدية، التي كانت وصية على عقول الناس، بخطر تعميم المعرفة، فقاومت انتشارها. غير أن رئيس الوزراء، الصدر الأعظم، كان يرى غير ما يراه هؤلاء، إذ ربط بين المطبعة وتأخر الدولة في مضمار العلوم والحضارة، فساعد في إصدار فرمان وفتوى تبيح دخول المطبعة. لكن القوى المحافظة تمردت، وكان أن دفع السلطان عرشه ثمنا لهذه الخطوة التي دفع الصدر الأعظم حياته لها، كما أن شيخ الإسلام عزل من منصبه.

الخلاصة

لقد تأخر دخول المطبعة إلى البلاد العربية أربعة قرون تقريبا، عاش خلالها العرب فترة جمود وتخلف حضاري عن ركب المدنية المعاصرة، في حين شهدت أوروبا ثورة معرفية مكنتها من الوصول إلى سيادة العالم بالعلم والمعرفة التي سخرتهما للبناء كما سخرتهما للسيطرة على شعوب العالم كله، ومن بينهم العرب، الشركاء في الدولة العثمانية– التي انتهى أمرها بالخروج من المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى.

تمثل هذه القرون الأربعة فجوة معرفية بين العرب من جهة، وبين الغرب الأوروبي من جهة أخرى. في العصور الوسطى، نهل الأوروبيون من العلم العربي وتتلمذوا على يديه حتى اشتد عودهم. ومع اختراع المطبعة في منتصف القرن الخامس عشر، (التي آذنت بقدوم عصر الاتصال الجماهيري والذي يعرف باسم عصر المطبعة)، شهدت أوروبا نهضة شاملة علمية وفكرية ودينية واقتصادية لم تتوافر للعرب. كان هذا بفضل تطوير تكنولوجيا معلو–اتصالية عملت على تفجير المعرفة وتوفيرها للعقول العطشى. بالمقابل، دفعت الدولة العثمانية ثمنا كبيرا لتخلفها عن اللحاق بركب الحضارة والفكر والعلم، ودفع العرب ثمنا أغلى، لأن الدولة العثمانية تعمدت تأخير دخول مرافق الطباعة مدة قرن كامل للمناطق العربية بعد دخولها الآستانة.

الهوامش

(1) في هذه الدراسة استخدم مفهوم المعلو– اتصالية (الذي تعرف إليه الباحث في بعض الدراسات العربية الأخرى) ليعني الاتصال والإعلام والمعلوماتية معا. فالاتصال هو علم الرموز (كالحروف والإشارات) اللفظية وغير اللفظية، الدالة وغير الدالة. ومن ميادين الاتصال العديدة هناك الاتصال الجماهيري، المعروف في العالم العربي بالإعلام. ونظريا، فإن الإعلام هو وظيفة واحدة من وظائف الاتصال الجماهيري المختلفة. وهناك وسائل الاتصال الجماهيري، مثل الورق والمطبعة والإذاعة والتلفاز والكمبيوتر، التي تحمل رموز الاتصال والمعلومات.

(2) يظن بعض الباحثين أن كتاب حي بن يقظان قد ألهم دانيال ديفو ليؤلف كتابه المشهور: روبنسون كروزو، الذي ظهر بعد طباعة كتاب حي في بريطانيا بنصف قرن تقريبا.

(3) يرفض العرب المسيحيون من ناحية قومية اعتبارهم أقلية (انظر رؤوف أبو جابر–مرجع مستخدم في هذه الدراسة). لكن ضعف الدولة العثمانية سمح للقوى الأجنبية بفرض حمايتها على الطوائف الدينية، او "الأقليات" الدينية في الولايات العربية.

(4) تتضارب المصادر العربية بشأن موعد صدور الفتوى: فهي عند أديب مروة صدرت عام 1712، وعند خليل صابات عام 1716، وعند أحمد شقيرات عام 1727، وقد اعتمدنا الرأي الأخير لروايته وتوثيقه الدقيق بالتأريخ للأحداث.

(5) يذكر صابات أن مطبعة بولاق تأسست عام 1819 بينما مروة يحدد التاريخ بعام 1821. أما الطناجي، فيقول إن المطبعة أنشئت سنة "1819م أو 1821م" (ص 356).

المصادر والمراجع

المراجع العربية

أبو جابر، رؤوف سعد. الوجود المسيحي في القدس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2004.

بن جنيد، يحيى محمود. الطباعة في شبه الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر الميلادي (1297–1317 هجري). الرياض: دار

أجا، 1998.
بنشريفة، محمد. "حول تاريخ الطباعة العربية في المغرب العربي خلال القرن التاسع عشر"، في ندوة تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر. أبوظبي: منشورات المجمع الثقافي، 1996.
تايلور، فيليب. قصف العقول. الكويت: عالم المعرفة، رقم 256 (كما أشير إليه في الموقع الالكتروني التالي: http://www.syriastar.com/vb/showthread.php?p=45239
راسل، برتراند. حكمة الغرب. جزء 2 (ترجمة: فؤاد زكريا). الكويت: سلسلة عالم المعرفة، رقم 365، 2009.
السامرائي، قاسم."الطباعة العربية في أوروبا"، في ندوة تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر. أبوظبي: منشورات المجمع الثقافي، 1996.
شقيرات، أحمد صدقي. تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني 1425–1922 (المجلد الأول)، اربد، الأردن، 2002.
صابات، خليل. تاريخ الطباعة في الشرق العربي. القاهرة: دار المعارف، 1966.
صابات، خليل. وسائل الاتصال: نشأتها وتطورها. القاهرة: مكتبة الأنجلو مصرية، 1979.
الطناجي، محمود. "أوائل المطبوعات العربية في مصر"، في ندوة تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر. أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي، 1996.
عبد الرزاق، فوزي. مملكة الكتاب: تاريخ الطباعة في المغرب 1865–1912 (تعريب: خالد بن الصغير). الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1996.
قدورة، وحيد. بداية الطباعة العربية في استانبول وبلاد الشام: تطور المحيط الثقافي (1706–1787م). الرياض–تونس: مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية/مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، 1993.
ماكفيل، توماس. الإعلام الدولي: النظريات–الاتجاهات–الملكية. ترجمة حسني محمد نصر وعبدالله الكندي. العين: دار الكتاب الجامعي، 2005.
محافظة، علي. الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1798–1914. بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، 1984.
مروة، أديب. الصحافة العربية: نشأتها وتطورها. بيروت: منشورات عويدات، 1970.
الموسى، سليمان. الحركة العربية: المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة 1908–1924. بيروت: دار النهار للنشر، 1977.
الموسى، عصام سليمان. "الورق وتطور صناعته في العصر العباسي كوسيلة اتصال فاعلة". مجلة جامعة دمشق. المجلد 27، العددان 3 و4، 2011 (ص ص 211–250).

المراجع الأجنبية

Eisenstein, Elizabeth. 1980. The Printing Press as an Agent of Change. New York: Cambridge University Press.

Innis, Harold, A. 1971. ***Empire and Communications***. Toronto: University of Toronto Press.

Mody, Bella. 1985. "First World Communication Technologies in Third World Contexts", in: Everett M. Rogers and Francis Balle, eds., ***The Media Revolution in America and Western Europe***. Paris-Stanford Series, Vol. ll, Norwood, NJ: Ablex Publishing Corporation.

Mcluhan, Marshall. 1964. ***Understanding Media: The Extensions of Man***. A Mentor Book: New York.

Mousa, Issam S. 2001. "The Arabs in the First Communication Revolution: The Development of the Arabic Script", ***Canadian Journal of Communication***, 26: 465-488.

Smith, A. 1980 ***Goodbye Gutenberg***. New York, Oxford University Press.

Peterson, Theodore. 1976. "The Social responsibility Theory of the Press" in: ***Four Theories of the Press*****,** by Siebert, Fred; Peterson, Theodore; and Schramm, Wilbur. Urbana: University of Illinois Press.

Seibert, Fred. 1976 "The Authoritarian Theory", in: ***Four Theories of the Press*****,** by Siebert, Fred; Peterson, Theodore; and Schramm, Wilbur. Urbana: University of Illinois Press, 1.

Stephens, Mitchell. 1998 "Which Communication Revolution Is It, Anyway". ***Journalism and Mass Communication Quarterly***. Spring, 75 (1): 9-13.

A Communication Gap between Arabs and Europe: The Delay of the Introduction of Printing Press

Issam S. Mousa*

ABSTRACT

The Introduction of the printing press into the Ottoman Empire, and thereof Arab countries which constituted a major component of that Empire, was delayed as a result of a religious fatwa (edict) for about four centuries. Arab lands were first conquered by the Turks in 1516, around the time when printing, was invented by Gutenberg in 1439 marked the coming of the Second Communication Revolution, spread widely in the European continent. By the end of the 15th century A.D., around 2500 printing presses were found in European towns, with 15 million books printed, bringing awakening to that continent. But In the Ottoman Empire, the religious fatwa banned the use of the Printing press as sacrilegious to Muslims.

However, religious minorities were excluded of this fatwa, and the first Jewish printing press was found in 1492. Arab Christians' printing presses were first introduced in 1610 in a monastery in present-day Lebanon. Arab Christian presses were of immense value as they helped preserve Arab culture generally. The ban for Muslims ended in 1727, and the first printing house was built in Istanbul a year later. Few books were printed then, but a revolution followed in 1730 leading to the destruction of the press, dethroning of the Sultan and the murder of his prime minister. The following years witnessed the reinstitution of the printing press, which published in 100 years, until 1828, not more than 98 books, averaging one book per year, a clear indication of the slow pace of progress in the Empire.

But, in Arab lands, the printing press was not introduced until the first half of the 19th century. Stringent press-laws followed. As a result , four centuries separated Arabs from the benefit of the press, bringing growth to a standstill, creating a cultural gap with Europe.

Keywords: First Communication Revolution, Printing press, Ottoman Empire, Arab Countries, Arab Christian press, Cultural Gap.

* Faculty of Communication, Yarmouk University, Irbid, Jordan.
Received on 20/2/2013 and Accepted for Publication on 25/8/2013.